المبحث الثالث

المطلب الأول:

سماحة النبي محمد ﷺ في معاملة غير المسلمين

بعث الله تعالى نبيه ﷺ رحمة للعالمين، وهو ﷺ مثال للكمال البشري في حياته كلها، مثال للكمال في علاقته بربه وفي علاقته بالناس كلهم بمختلف أجناسهم وأعمارهم وألوانهم، مسلمين وغير مسلمين، قال جابر بن عبد الله رضى الله عنه «كان رسول الله ﷺ رجلا سهلا»[١]، قال النووي: " أي سهل الخلق كريم الشمائل لطيفا ميسرا في الخلق "[٢]

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثما فإن كان إثما كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها»[٣] بمثل هذه القيم كانت دعوة النبي ﷺ، يسر في كل شيء، وذود عن حرمات الله لا عن عرض الدنيا أو أهواء النفوس

وتعدد صور السماحة في هدي النبي ﷺ مع غير المسلمين وشواهد ذلك من سيرته لا تحصر وأذكر منها ما يلي:

١. رحمته ﷺ بالخلق عامة وهو الذي قال الله عز وجل عنه:**{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}**[٤]، فكان ﷺ الرحمة المهداة إلى الخلق كلهم، وحث على العطف على الناس ورحمتهم فقد قال ﷺ : **«لا يرحم الله من لا يرحم الناس»** [٥]، وكلمة الناس هنا تشمل كل أحد من الناس، دون اعتبار لجنسهم أو دينهم وجاءت النصوص في باب الرحمة مطلقة، وقد ساق البخاري في باب رحمة الناس والبهائم حديث النبي ﷺ : **«ما من مسلم غرس غرسا فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة»** [٦]، فدين الإسلام دين السماحة والرحمة

(١) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام وأنه يجوز إفراد الحج والتمتع والقران، رقم الحديث: ١٢١٣.

(٢) شرح صحيح مسلم، النووي، مكتبة المعارف، الرياض، ط ١، ١٤٠٧ه، ج ٤ ص ٤١٠.

(٣) رواه البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، رقم الحديث: ٣٥٦٠.

(٤) الأنبياء: ١٠٧.

(٥) رواه البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: قل ادعو الله أو ادعو الرحمن أيا ما تدعو فله الأسماء الحسنى، رقم الحديث: ٧٣٧٦.

(٦) رواه البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، رقم الحديث: ٦٠١٢.

يسع الناس كلهم ويغمرهم بالرحمة والإحسان

٢. تجاوزه عن مخالفيه ممن ناصبوا لـه العداء فقد كانت سماحته يوم الفتح غاية ما يمكن أن يصل إليه صفح البشر وعفوهم فكان موقفه ممن كانوا حربا على الدعوة ولم يضعوا سيوفهم بعد عن حربها أن قال لهم: **«اذهبوا فأنتم الطلقاء»** (١)

٣. دعاؤه ﷺ لمخالفيه من غير المسلمين فقد قدم الطفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه فقالوا: يا رسول الله إن دوسا قد كفرت وأبت فادع الله عليها، فقيل: هلكت دوس - ظنا بأن النبي ﷺ إنما رفع يديه للدعاء عليها - فقال ﷺ : **«اللهم اهد دوسا وائت بهم»** (٢)

ودعا ﷺ لأم أبي هريرة قبل إسلامها فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: «كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة فدعوتها يوما فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي قلت: يا رسول الله إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى علي فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة فقال رسول الله ﷺ : **«اللهم اهد أم أبي هريرة»**، فخرجت مستبشرا بدعوة نبي الله ﷺ فلما جئت فصرت إلى الباب فإذا هو مجاف فسمعت أمي خشف قدمي فقالت: مكانك يا أبا هريرة وسمعت خضخضة الماء قال فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها ففتحت الباب ثم قالت:

يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله قال فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأتيته وأنا أبكي من الفرح» الحديث (٣)

وجاء الأنصار إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله ادع الله على ثقيف فقال رسول الله ﷺ : **«اللهم اهد ثقيفا»**، قالوا: يا رسول الله ادع عليهم فقال: **«اللهم اهد ثقيفا»**، فعادوا فعاد فأسلموا» فوجدوا من صالحي الناس إسلاما ووجد منهم أئمة وقادة(٤)

(١) السيرة النبوية، ابن هشام، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٥ه، ج ٤ ص ٦١.
(٢) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل غفار وأسلم وجهينة وأشجع ومزينة وتميم ودوس وطيئ، رقم الحديث: ٢٥٢٤.
(٣) رواه مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل أبي هريرة رضى الله عنه رقم الحديث: ٢٤٩١.
(٤) انظر: تاريخ المدينة، ابن شبة، دار العليان، بريدة، ط١ ج٢ ص ٩٨.

ومن صور الدعاء ما كان من اليهود حيث كانوا يتعاطسون عند النبي ﷺ رجاء أن يقول لهم يرحمكم الله فلم يحرمهم من الدعوة بالهداية والصلاح، فكان يقول: **«يهديكم الله ويصلح بالكم»** (١)

٤. وكان ﷺ يقبل هدايا مخالفيه من غير المسلمين «فقبل هدية زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم في خيبر حيث أهدت له شاة مشوية قد وضعت فيها السم»(٢)

وقد قرر الفقهاء قبول الهدايا من الكفار بجميع أصنافهم حتى أهل الحرب قال في المغني: "ويجوز قبول هدية الكفار من أهل الحرب لأن النبي ﷺ قبل هدية المقوقس صاحب مصر"(٣)

٥. وكان من سماحة النبي ﷺ أن يخاطب مخالفيه باللين من القول تأليفا لهم، كما تظهر سماحة النبي ﷺ مع غير المسلمين في كتبه إليهم حيث تضمنت هذه الكتب دعوتهم إلى الإسلام بألطف أسلوب وأبلغ عبارة

٦. وكان ﷺ يغشى مخالفيه في دورهم فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: **«بينا** نحن في المسجد إذ خرج إلينا رسول الله ﷺ فقال: **«انطلقوا إلى يهود»** فخرجنا معه حتى جئناهم فقام رسول الله ﷺ فناداهم فقال: **«يا معشر يهود أسلموا تسلموا»** فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم**»** الحديث (٤) وعاد ﷺ يهوديا، كما في البخاري عن أنس رضى الله عنه «أن غلاما ليهود كان يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده فقال: «**أسلم**» فأسلم(٥)

٧. وكان ﷺ يعامل مخالفيه من غير المسلمين في البيع والشراء والأخذ والعطاء، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: توفي النبي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين يعني: صاعا من شعير(٦)

٨. وكان ﷺ يأمر بصلة القريب وإن كان غير مسلم فقال لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: **«صلي أمك»** (٧)

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، باب إذا عطس اليهودي، وصححه الألباني، انظر: صحيح الأدب المفرد، الألباني، ص ٣٤٨ رقم الحديث: ٧١٩.
(٢) رواه البخاري، كتاب الهبة، باب قبول الهدية من المشركين، رقم الحديث: ٢٦١٧.
(٣) المغني، ابن قدامة، ج١٣ ص٢٠٠.
(٤) رواه مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب إجلاء اليهود من الحجاز، رقم الحديث: ١٧٦٥.
(٥) رواه البخاري، كتاب المرضى، باب عيادة المشرك، رقم الحديث: ٥٦٥٧.
(٦) رواه البخاري، كتاب المغازي، رقم الحديث: ٤٤٦٧.
(٧) رواه البخاري، كتاب الهبة، باب الهدية للمشركين، رقم الحديث: ٢٦٢٠.

وفي المدينة حيث تأسس المجتمع الإسلامي الأول وعاش في كنفه اليهود بعهد مع المسلمين وكان ﷺ غاية في الحلم معهم والسماحة في معاملتهم حتى نقضوا العهد وخانوا رسول الله ﷺ، أما من يعيشون بين المسلمين يحترمون قيمهم ومجتمعهم فلهم الضمان النبوي، فقد ضمن ﷺ لمن عاش بين ظهراني المسلمين بعهد وبقي على عهده أن يحظى بمحاجة النبي ﷺ لمن ظلمه فقال ﷺ : **«ألا من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة»** (١)

وشدد الوعيد على من هتك حرمة دمائهم فقال ﷺ : **«من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاما»** (٢)، تلك صور من سماحة النبي ﷺ مع غير المسلمين وهو ما سار عليه الصحابة رضي الله عنهم والتابعون من بعدهم وهو ما سأعرض له في المطلب التالي

كان ﷺ يدعو الناس بمختلف اتجاهاتهم ويبلغهم رسالة ربه، ومن ضمنهم أهل الكتاب وقد كان ﷺ يدعو أهل الكتاب دعوة خاصة، وكان تارة يدعوهم بوجه عام اليهود والنصارى، وتارة يخص بدعوته اليهود، وتارة يخص بدعوته النصارى

وقد امتثل ﷺ أمر ربه حيث أمره بذلك في قوله تعالى: **(قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباب من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)**(٣) هذا خطاب موجه إلى أهل الكتاب يأمر فيه الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم محمد ﷺ أن يقول: يا معشر اليهود والنصارى هلموا إلى كلمة عادلة مستقيمة فيها إنصاف بعضنا من بعض وأن نفرد الله وحده بالعبادة ولا نجعل له شريكاً، أي لا يعبد بعضنا بعضاً كما عبد آباؤكم من اليهود والنصارى عزيراً وعيسى، وأطاعوا الأحبار والرهبان فيما أحلوا لهم وحرموا وهذا خطاب فيه خصوصية لأهل الكتاب لأنهم أهل علم ودراية بدين سابق

(١) رواه أبو داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمة، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت، رقم الحديث: ٣٠٥٢ وصححه الألباني، صحيح سنن أبي داود، الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٩هـ، ج ٢ ص ٥٩.

(٢) رواه البخاري، كتاب الجزية والموادعة، باب إثم من قتل معاهدا، رقم الحديث: ٣١٦٦.

(٣) سورة آل عمران /٦٤.

و كان النبي ﷺ يدعو أهل الكتاب كافة، وكان التأكيد أقوى في مخاطبته الملوك والزعماء، لأن من كان ذا مسؤولية ورعاية عظيمتين كان التبعة عليه أعظم، من هذا المنطلق كتب ﷺ إلى هرقل عظيم الروم خطاباً لطيفاً فيه تبشير وتنذير قال فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن أبيت فإن عليك إثم الأريسيين[١]

قال الإمام النووي في شرح هذا الحديث: (الأريسيين هم الأكارون أي الفلاحون والزراعون ومعناها أن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك، وبهؤلاء على جميع الرعايا لأنهم الأغلب ولأنهم الأسرع انقياداً فإذا أسلم أسلموا وإذا امتنع امتنعوا)[٢]

و المعنى أنه إذا آمن له أجران أجر لإيمانه بالرسول السابق، وأجر لإيمانه بمحمد، وإذا لم يؤمن أن عليه إثم الضعفاء والأتباع في مملكته إذا لم يسلموا تقليداً له، لأن الأصاغر أتباع الأكابر

و في دعوته لليهود والنصارى قال: **«و الذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»** [٣] وفي هذا الحديث خص النبي ﷺ اليهود والنصارى رغم أن لهم كتباً سماوية أمروا باتباع ما فيها، وفيه كذلك دليل على نسخ الملل كلها برسالة نبيِّنا محمد ﷺ

و في حديث آخر قال رسول الله ﷺ : **«ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران»** [٤]

وفي هذا الحديث جعل الرسول ﷺ أسلوب الترغيب لأهل الكتاب منهجاً في دعوته حيث أخبرهم أن الذي آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ له أجران، وكذلك يرى الكتابي أنه له

(١) أخرجه البخاري - جزء ١ ص ٩ - كتاب بدء الوحي - باب كيف بدأ الوحي إلى رسول الله ﷺ - حديث رقم (٧).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم - الجزء ١٢ - ص١٠٩ (المكتبة الألفية).

(٣) أخرجه مسلم - الجزء الأول - ص ١٣٤ - باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس (الموسوعة الذهبية) حديث رقم ١٥٣٥.

(٤) أخرجه البخاري - الجزء الأول - ص٤٨ - باب تعليم الرجل أمته وأهله - حديث رقم ٩٧.

مزية على المشرك حيث كان للمشرك أجر واحد، فيعلم بذلك أن الإسلام يقدر الأديان السابقة ويرفع من شأنها

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نحن في المسجد إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: **«انطلقوا إلى يهود»**، فخرجنا معه حتى جئنا بيت المدراس[١]، فقام النبي ﷺ فناداهم: **«يا معشر يهود أسلموا تسلموا»** فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم، فقال: **«ذلك أريد»**، ثم قالها الثانية، فقالوا قد بلغت يا أبا القاسم، ثم قال الثالثة، فقال: **«اعلموا أن الأرض لله ورسوله وإني أريد أن أجليكم فمن وجد منكم بماله شيئاً فليبعه وإلا فاعلموا أن الأرض لله ورسوله»** [٢] والظاهر أن هؤلاء بقايا من اليهود تأخروا بعد إخراج قبائل اليهود الثلاثة بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، لأن القبائل الثلاثة أجليت من المدينة قبل إسلام أبي هريرة رضي الله عنه[٣]

في هذا الحديث تصريح منه ﷺ لليهود بالدعوة وإخباره لهم أن سلامتهم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة في إسلامهم واتباعهم لما جاء به من عند الله، أي تسلموا في الدنيا من القتل وفي الآخرة من العذاب [٤] وقد أخذ ﷺ الاعتراف من اليهود بأنه بلغهم رسالته، وهذه دلالة على دعوته الخاصة لهم

قال تعالى:**{فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ}**[٥]

إن أسلوبه ﷺ إما ترغيب أو ترهيب، في هذه الآية يتحدى ﷺ نصارى نجران بأن يتركوا كلامهم عن ألوهية عيسى وذلك بالتضرع إلى الله تعالى أن ينزل لعنته على الكاذبين، وهذا من حرصه ﷺ أن يدخلوا الإسلام، ولكن النصارى لم يأمنوا عاقبة الملاعنة فتركوها ورضوا بالجزية[٦] رغم أنهم اعتقدوا بصدق النبي ﷺ، لذلك لم يباهلوا

(١) بيت المدراس بكسر الميم: هو البيت الذي يدرس فيه كتابهم، فتح البارى.
(٢) صحيح البخاري - الجزء ٦ - ص ٢٥٤٧ - باب بيع المكره - (الموسوعة الذهبية)حديث رقم ٦٥٤٥.
(٣) فتح البارى - الجزء ٦ ص ٢٧١.
(٤) شرح الكرماني لصحيح البخاري ٥٤/١٣ - مؤسسة المطبوعات الإسلامية - مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد لنشر القرآن الكريم والكتب الإسلامية - القاهرة.
(٥) آل عمران: ٦١.
(٦) انظر تفسير القرطبي - الجزء ٤ - ص١٠٤.

بل فروا منه ولم يؤمنوا ويدخلوا في الإسلام

إن الحلم عن أهل الكتاب والصفح عن زلاتهم ولين الجانب معهم أسلوب حكيم من أساليبه ﷺ لهم وسبب في دخولهم الإسلام، وقد امتثل ﷺ أمر ربه حيث أمره بذلك في قوله:**{لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ}**[1]

و في الآية خطاب للمؤمنين عند مقدمهم قبل واقعة بدر تسلية لهم عما ينالهم من الأذى من أهل الكتاب والمشركين وأمراً لهم بالصفح والصبر والعفو حتى يأتي فرج الله قال ابن حاتم إن أسامة بن زيد قال: **(كان النبي ﷺ يتأول العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم)**[2]

و في آية قرآنية أخرى يحذر الله تعالى عباده المؤمنين من سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ويعلمهم بعداوتهم في الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم، ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو والاحتمال حتى يأتي أمر الله من النصر أو الفتح[3] قال تعالى في المعنى السابق:**{وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ}**[4]

و من حلمه ﷺ على أهل الكتاب أنه استلف تمراً من يهودي إلى أجل معلوم، فخرج رسول الله ﷺ في جنازة، فلما وضع الميت في قبره قام اليهودي فقال: يا محمد ألا تقضيني تمري؟ فو الله ما أعلمكم يا بني عبد المطلب إلا تمطلون الناس بحقوقهم فهمَّ عمر رضي الله عنه بضرب اليهودي، فقال له ﷺ : **«ياعمر أنت إلى غير هذا أحوج، أن تأمره فيحسن طلبه، وتأمرني فأحسن قضاءه»** ثم أمره أن يذهب إلى حائط أحد الأشخاص وأن يكيل له بعد رضائه ثم يزيد كذا صاعاً لتعنيف سيدنا عمر إياه فقال اليهودي لعمر: إنه لم يكن بقي شئ مما وجدنا في كتابنا مما وصف لنا موسى عليه السلام، إلا قد رأيناه في محمد ﷺ، إلا الحلم فقد رأيناه الآن، فشهد شهادة الحق وآمن، ثم مات اليهودي فخرج

(١) آل عمران: ١٨٦.
(٢) تفسير ابن كثير - الجزء (١) - صفحة ٤٣٦.
(٣) تفسير ابن كثير - الجزء (١) - صفحة ١٥٤.
(٤) البقرة: ١٠٩.

النبي ﷺ فحمل سريره على عاتقه الأيسر[1] رغم تجاوز هذا اليهودي في سبه ﷺ ثم سب بني عبد المطلب جميعاً، وطلب دينه في وقت غير مناسب، إلا أنه ﷺ كان حليماً بهذا اليهودي، لذلك كان رد الفعل إسلامه الفوري وهذا أسلوب حكيم للرسول ﷺ مع أهل الكتاب لدعوتهم لدخول الإسلام

إن الله سبحانه وتعالى قد أعطى بعض أنبيائه من البينات (المعجزات) وذلك لتصديقهم فيما جاؤوا به وقد أيد الله سبحانه وتعالى نبيه موسى عليه السلام بتسع آيات: العصا واليد والسنين ونقص من الثمرا ت والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم التي فيها حجج وبراهين على فرعون وقومه وخوارق ودلائل على صدق موسى عليه السلام، وكذلك أعطى عيسى ابن مريم عليه السلام إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وإبراء الأسقام، وإخباره بالغيوب، وتأييده بروح القدس وهو جبريل عليه السلام ما يدل على صدقه فيما جاءهم به

أما النبي محمد ﷺ كانت معجزته الكبرى القرآن، إلا أنه كان يظهر لأهل الكتاب بعض المعجزات التي كانت تتحقق على يديه علهم يؤمنون به كما آمنوا بأنبيائهم السابقين موسى وعيسى عليهم السلام

روى ابن عباس رضي الله عنهما، أنه حضرت عصابة من اليهود إلى النبي ﷺ فسألوه عن أربعة أشياء لا يعلمهن إلا نبي كما ذكروا له ذلك وهي: الطعام الذي حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، وماء المرأة وماء الرجل كيف يكون منه الذكر والأنثى، وإخبار هذا النبي الأمي في النوم ووليه من الملائكة، وقد أخذ عليهم النبي ﷺ المواثيق والعهود إذا أجابهم وفق ما يعلمون أن يدخلوا الإسلام، وكانت الإجابة أن يعقوب عليه السلام مرض مرضاً شديداً وطال سقمه فنذر نذراً لئن شفاه الله تعالى من سقمه ليحرمن أحب الشراب وأحب الطعام إليه، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها والإجابة الثانية أن ماء الرجل أبيض غليظ وأن ماء المرأة أصفر رقيق فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله والإجابة الثالثة أن هذا النبي الأمي تنام عيناه ولا ينام قلبه، فالإجابة الأخيرة أن جبريل هو ولي الرسول ﷺ وجميع الأنبياء

و في هذا الحديث يبين الرسول ﷺ لأهل الكتاب بعض المغيبات التي لم يحضرها ولم

(١) انظر القسم المطبوع من سيرة ابن إسحاق فقرة ٤٥٩ ص ٢٧٢، ٢٧٣ تحقيق وتعليق محمد حميد الله - تقديم الأستاذ محمد القاسمي.

يقرأ عنها وإنما هي وحي يوحى إليه، وأخبرهم بما سألوه عنه طبق ما يعلمون في كتبهم السماوية المنزلة على أنبيائهم ليؤمنن به وليتبعنه ولكن اليهود حاولوا التخلص من العهد الذي التزموا به مع النبي ﷺ بحجة بغضهم لجبريل عليه السلام[١]، قال تعالى فيهم:**{قُلْ مَن كَانَ عَدُواً لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}**[٢]

كان النبي ﷺ يبين لأهل الكتاب أن كتابه الذي أنزل عليه توافق أحكامه أحكام الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام، فإذا تحقق التوافق حينئذ فإنه رسول من عند الله صدقوا برسالته ودخلوا في دين الإسلام

قال ابن عمر رضي الله عنهما: (إن اليهود جاؤوا إلى النبي ﷺ فذكروا أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ : **«ما تجدون في التوراة في الرجم؟»** فقالوا: نفضحهم ويجلدون قال عبدالله بن سلام كذبتم إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، قال له عبدالله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم قالوا صدقت يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، فرأيت الرجل ينحني على المرأة يقيها الحجارة[٣]

و في هذا الحديث أن رسول الله ﷺ أقنعهم أن كتاب الله الذي أنزله على نبيهم موسى عليه السلام يوافق كتابه الذي أنزله في شأن الرجم على نبينا محمد ﷺ وهذا أسلوب لدعوته ﷺ أهل الكتاب لدخول الإسلام

قال الإمام ابن حجر في قوله ﷺ : **«ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟»** قال الباجي: (يحتمل أن يكون علم بالوحي أن الحكم بالرجم فيها ثابت على ما شرع لم يلحقه تبديل، ويحتمل أن يكون علم ذلك بإخبار عبدالله بن سلام وغيره ممن أسلم منهم على وجه حصل له به العلم بصحة نقلهم، ويحتمل أن يكون إنما سألهم عن ذلك ليعلم ما عندهم فيه ثم يتعلم صحة ذلك من قبل الله تعالى)[٤]

كان رسول الله ﷺ يحب موافقتهم في الأمور التي لم يؤمر فيها بشيء، وذلك تألفاً واستعطافاً لهم على هذا الدين الحنيف، ذلك لأنهم إذا رأوه يتعبد بالأحكام التي يعلمون

(١) انظر البداية والنهاية - ابن كثير - الجزء ٦ - ص ١٧٣.
(٢) البقرة: ٩٧.
(٣) أخرجه البخاري - باب قوله تعالى:**{**يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون**}** - الجزء الثالث ص ١٥٣٠ (الموسوعة الذهبية) حديث رقم ٣٤٣٦.
(٤) فتح البارئ - الجزء ١٢ ص ١٦٨ (المكتبة الألفية).

أنها تشريع سماوي أنزلـه الله على نبي من أنبيائه كتعبده بما يتفق مع ما في التوراة المنزلـة والإنجيل، علموا أن مصدر التشريع الذي عندهم والذي عنده واحد هو الله سبحانه وتعالى، وعلى ذلك يجب أن يراجعوا أنفسهم فيما هم عليه من التكذيب والعناد والجحود، فيؤمنوا بمحمد ﷺ

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (لما قدم النبي ﷺ المدينة وجد اليهود يصومون عاشوراء، فسئلوا عن ذلك فقالوا: هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون، ونحن نصومه تعظيماً لـه، فقال رسول الله ﷺ : **«فأنا أحق بموسى منكم»** فصامه وأمر بصيامه [١]

و عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يسدل شعره، وكان المشركون يفرقون رؤوسهم، وكان أهل الكتاب يسدلون رؤوسهم، وكان النبي ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء، ثم فرق النبي ﷺ رأسه [٢]

و في هذا الحديث اتضح أن النبي ﷺ وافق أهل الكتاب في أفعالهم حتى يخالف أهل الأوثان، فلما أسلم أهل الأوثان الذين معه والذين حولـه واستمر أهل الكتاب على كفرهم تمحضت المخالفة لأهل الكتاب ثم فرق ﷺ رأسه

لا شك أن الدعوة إلى الله عز وجل تشتمل على الإنذار والتبشير، والوعد والوعيد، لذلك أخبر ﷺ أن اليهود تعذب في قبورها، فأنذرها من عذاب القبر، لأن عذاب دلالة على عذاب الآخرة وهذا يدل على حرصه لدخولهم الإسلام

عن أبي أيوب الإنصاري رضي الله عنه قال: خرج النبي ﷺ وقد وجبت الشمس فسمع صوتاً فقال: **«يهود تعذب في قبورها»** [٣]

* * * * *

(١) أخرجه البخاري - الجزء الثالث ص ١٤٣٤ باب إتيان النبي ﷺ حين قدم المدينة - حديث رقم ٣٧٢٧.

(٢) أخرجه البخاري - الجزء الثالث ص ١٣٠٥ - باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم - حديث رقم٣٣٦٥.

(٣) أخرجه البخاري - الجزء الإول ص ٤٦٣ - باب التعوذ من عذاب القبر - حديث رقم ١٣٠٩ د/ بشرى محمد أحمد.

المطلب الثاني:

صور من سماحة الصحابة والتابعين في معاملة غير المسلمين

تقدم القول بأن تاريخ الإسلام شاهد على أن المسلمين لم يكرهوا أحدا في أي فترة من فترات التاريخ على ترك دينه، فالإسلام دين العقل والفطرة ولا يقبل من أحد أن يدخله مكرها، تحدى الأولين والآخرين بمعجزته الخالدة، ولم يعرف في تاريخ المسلمين الطويل أنهم ضيقوا على اليهود والنصارى أو غيرهم أو أنهم أجبروا أحدا من أي طائفة من الطوائف اليهودية أو النصرانية على اعتناق الإسلام(١)

يقول توماس آرنولد: "لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام غير المسلمين على قبول الإسلام أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي"(٢)

لقد كان عهد الخلفاء الراشدين امتدادا لعهد النبي ﷺ وشهد صورا من سماحة الإسلام في معاملة غير المسلمين من إعانتهم بالمال أو النفس عند الحاجة، ومن كفالة العاجز منهم عن العمل أو كبير السن، وغير ذلك

وهذا هو ما سار عليه الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم في صدر الإسلام في معاملتهم لأهل الذمة، وأسوق هنا بعض الشواهد والأمثلة التي تبين سماحة الصحابة رضي الله عنهم في معاملة غير المسلمين:

١ - في خلافة أبي بكر رضى الله عنه كتب خالد بن الوليد رضى الله عنه في عقد الذمة لأهل الحيرة بالعراق - وكانوا من النصارى: " وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنيا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله" (٣)

إن الذين يسعون إلى تقرير التكافل الاجتماعي وبيان صوره لن يجدوا أعظم من هذه الصورة في الإسلام مع مخالفيه، فهو يتسامى بمن يعيشون في كنفه ويحوطهم برحمته وإحسانه عندما يحتاجون إلى مواساة لأي سبب من الأسباب بل يجعلهم عيالا

(١) انظر: عقد الذمة في التشريع الإسلامي، محمد المطردي، الدار الجماهيرية، طرابلس، ط ١، ١٩٨٧م ص ١٧.

(٢) الدعوة إلى الإسلام، توماس آرنولد، مكتبة النهضة، مصر، ط ٣، ١٩٧٠م، ص ٩٩.

(٣) كتاب الخراج، أبو يوسف، ص ٣٠٦.

على بيت مال المسلمين ويرضخ لـه منه أيا كانت ديانتهم

إن التكافل الاجتماعي في الإسلام لا يرضى أن يذل رجل من أهل الذمة وهو يحيا في كنف الإسلام فيعيش على الصدقة يتكفف الناس ولكن الإسلام يحميه ويكرمه ويوجب على الدولة أن تعوله وتعول عياله(١)

٢ - وكان أبو بكر رضى الله عنه يوصي الجيوش الإسلامية بقولـه: " وستمرون على قوم في الصوامع رهبانا يزعمون أنهم ترهبوا في الله فدعوهم ولا تهدموا صوامعهم"(٢)

٣ - وأوصى عمر رضى الله عنه الخليفة من بعده بأهل الذمة أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم وأن لا يكلفوا فوق طاقتهم(٣)

٤ - ومر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بباب قوم وعليه سائل يسأل: شيخ كبير ضرير البصر، فضرب عضده من خلفه وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ قال: يهودي، قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن، قال: فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزلـه فرضخ لـه بشيء من المنزل ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم (إنما الصدقات للفقراء والمساكين) والفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه(٤)

٥ - إن السماحة في المعاملة يجب أن تكون في ضوء ضوابط الشرع ومقاصده ومثل ذلك يتطلب أن يكون المسلم على بصيرة بهدي النبي ﷺ وسلف الأمة من الصحابة والتابعين في هذا الشأن، فمن صور السماحة في المعاملة ما روي عن عمر رضي الله عنه أنه لما قدم الجابية من أرض الشام استعار ثوبا من نصراني فلبسه حتى خاطوا قميصه وغسلوه وتوضأ من جرة نصرانية

(١) انظر: الموسوعة في سماحة الإسلام، ج ١ ص ٤٤٦.
(٢) فتوح الشام، الواقدي، دار الجيل بيروت، د ت، ج ١ ص ٨.
(٣) رواه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما رقم الحديث: ١٣٩٢.
(٤) كتاب الخراج، أبو يوسف، ص ١٢٦.

وصنع لـه أهل الكتاب طعاما فدعوه فقال: أين هو؟ قالوا: في الكنيسة فكره دخولها وقال لعلي رضى الله عنه: اذهب بالناس فذهب علي رضى الله عنه بالمسلمين فدخلوا فأكلوا وجعل علي رضى الله عنه ينظر إلى الصور وقال: ما على أمير المؤمنين لو دخل فأكل[١]

٦ - ومن السماحة أن يراعى في معاملتهم كل مصلحة وقصد صحيح فعن عبد الله بن قيس قال: كنت فيمن تلقى عمر بن الخطاب مع أبي عبيدة مقدمه من الشام فبينما عمر يسير إذ لقيه (المقلسون) وهم قوم يلعبون بلعبة لهم بين أيدي الأمراء إذا قدموا عليهم بالسيوف والريحان فقال عمر رضى الله عنه: مه ردوهم وامنعوهم فقال أبو عبيدة يا أمير المؤمنين هذه سنة العجم أو كلمة نحوها وإنك إن تمنعهم منها سروا أن في نفسك نقضا لعهدهم فقال: دعوهم، عمر وآل عمر في طاعة أبي عبيدة[٢]

٧ - وصلى سلمان وأبو الدرداء رضي الله عنهما في بيت نصرانية فقال لها أبو الدرداء رضى الله عنه: هل في بيتك مكان طاهر فنصلي فيه؟ فقالت طهرا قلوبكما ثم صليا أين أحببتما فقال لـه سلمان رضى الله عنه: خذها من غير فقيه [٣]

٨ - وجاء في صفة الصفوة أن عمر بعث عميرا عاملا على حمص فمكث حولاً لا يأتيه خبره ولم يبعث لـه شيئا لبيت مال المسلمين، فقال عمر لكاتبه: اكتب إلى عمير فوالله ما أراه إلا قد خاننا إذا جاءك كتابي هذا فأقبل وأقبل بما جبيت من فيء المسلمين حين تنظر في كتابي هذا فأخذ عمير - لما وصله كتاب عمر - جرابه فوضع فيه زاده وقصعته وعلق إداوته وأخذ عنزته ثم أقبل يمشي من حمص حتى قدم المدينة فقدم وقد شحب لونه واغبر وجهه فدخل على عمر فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله قال عمر: ما شأنك؟ قال: ما تراني صحيح البدن ظاهر الدم، معي الدنيا أجرها بقرونها؟ قال عمر: وما معك؟ وظن عمر أنه جاءه بمال

(١) انظر: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم، دار المعرفة، بيروت، د ت، ج ١ ص ١٥٣، ١٥٧.
(٢) كتاب الأموال، أبو عبيد القاسم بن سلام، دار إحياء التراث الإسلامي، قطر، ١٩٨٧م ص ١٨٠.
(٣) انظر: إغاثة اللهفان، ابن القيم، ج١ ص ١٥٣.

قال: معي جرابي أجعل فيه زادي، وقصعتي آكل فيها وأغسل فيها رأسي وثيابي وإداوتي أحمل فيها وضوئي وشرابي، ومعي عنزتي أتوكأ عليها وأجاهد بها عدوا إن عرض لي، فوالله ما الدنيا إلا تبع لمتاعي وسأله عمر عن سيرته في قومه وعن الفيء فأخبره، فحمد فعله فيهم ثم قال: جددوا لعمير عهدا

قال عمير: إن ذلك شيء لا أعمله لك ولا لأحد بعدك، والله ما سلمت بل لم أسلم، لقد قلت لنصراني: أخزاك الله، فهذا ما عرضتني له يا عمر، وإن أشقى أيامي يوم خلفت معك [١] لقد عظم على عمير قوله لرجل من غير المسلمين:

أخزاك الله، وهو دعاء، وما ذكر خطأ اقترفه في ولايته على حمص أعظم من هذا، وفي ذلك دليل على أن هذا الدين ما جاء إلا بالرحمة والهداية وإنقاذ البشر من الضلال إلى الهدى ومن ظلمات الكفر إلى نور الطاعة، ولا عجب فمن مدرسة النبوة تخرج هذا الصحابي وغيره، ممن لا يؤذون الناس بل يغمرونهم بعطفهم ورحمتهم وسماحتهم وإحسانهم، ولذا قال عنه عمر: إنه نسيج وحده، وقال: وددت أن لي رجلا مثل عمير بن سعد أستعين به على أعمال المسلمين[٢]

إن الدعاء لغير المسلمين وفق ضوابط الشرع من أعظم صور التسامح في الإسلام ومن محاسنه الكبرى التي تنظر إلى الإنسان نظرة تكريم وعناية، وفي الدعاء استمالة ظاهرة لقلب المدعو فكل أحد يتمنى من الناس الدعاء له بالخير، ومن هنا قال ابن عباس رضى الله عنه: لو قال لي فرعون: بارك الله فيك قلت: وفيك، وفرعون قد مات [٣]

٩ - وعن مجاهد قال: كنت عند عبد الله بن عمرو رضى الله عنه وغلامه يسلخ شاة فقال: «يا غلام إذا فرغت فابدأ بجارنا اليهودي فقال رجل من القوم: اليهودي أصلحك الله؟ قال: سمعت النبي ﷺ يوصي بالجار حتى خشينا أو روينا أنه سيورثه»[٤]

(١) صفة الصفوة، ابن الجوزي، دار الكتب العلمية بيروت، ط ١ ١٤٠٩ هـ، ج ١ ص ٣٥٤.
(٢) المرجع السابق، ج ١ ص ٣٥٦.
(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد باب كيف يدعو للذمي؟ وحسنه الألباني، انظر: صحيح الأدب المفرد، الألباني، ص ٤٣٠ رقم الحديث ٨٤٧.
(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد، باب جار اليهودي، وصححه الألباني، انظر: صحيح الأدب المفرد،

١٠ -وفي خلافة عمر بن عبد العزيز رحمه الله كتب إلى عدي بن أرطأة: وانظر من قبلك من أهل الذمة قد كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب فأجر عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه[١]

وهذا لون من السماحة في المعاملة والعدل الذي لا يعرف لـه وجود إلا في الإسلام لأنه قائم على احترام الإنسانية ومعرفة حقوقها

١١ -وعندما أمر عمر بن عبد العزيز رحمه الله مناديه ينادى: ألا من كانت لـه مظلمة فليرفعها، قام إليه رجل ذمي من أهل حمص فقال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله قال: وما ذاك؟ قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي والعباس جالس، فقال لـه عمر: يا عباس ما تقول؟ قال: نعم أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد وكتب لي بها سجلا، فقال عمر: ما تقول يا ذمي؟ قال: يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى، فقال عمر: نعم كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد قم فاردد عليه ضيعته فردها عليه[٢]

١٢ -وفي عهد الرشيد كانت وصية القاضي أبي يوسف لـه بأن يرفق بأهل الذمة حيث يخاطبه بقولـه: "ينبغي يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ من أموالهم - إلا بحق يجب عليهم" [٣]

بمثل هذه المعاملة ساد المسلمون الأوائل وكانت معاملتهم محط إعجاب مخالفيهم فشهدوا لهم بالسمو في أخلاقهم والتسامح في معاملتهم وهو ما سأعرض لـه في المبحث التالي

* * * * *

الألباني ص ٧٢ رقم الحديث: ٩٥.
(١) كتاب الأموال، أبو عبيد، ص ٥٧.
(٢) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، دار الفكر، بيروت، د ت، ج ٩ ص ٢١٣.
(٣) الخراج، أبو يوسف، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٩هـ ص ١٢٥.

المطلب الثالث:

سماحة الإسلام في المعاملة في كتابات غير المسلمين

منذ فجر الدعوة الإسلامية كانت شهادة خصومها ظاهرة بينة إذ رأوا من سماحة هذا الدين وتيسيره ما بهر عقولهم وأخذ بألبابهم ورأوا من سلوك أهله ما دعاهم إليه، فاستجابت نفوس الكثيرين إليه وإلى أهله وإن لم يؤمنوا به، فدون التاريخ شهاداتهم له ولأهله بحسن المعاملة والسماحة العظيمة

١ - فمن ذلك ما كتبه نصارى الشام في صدر الإسلام حيث كتب النصارى في الشام سنة ١٣هـ إلى أبي عبيدة بن الجراح رضى الله عنه يقولون: " يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا "[(١)] واستمر هذا النهج في معاملة غير المسلمين عبر تاريخ الإسلام

٢ - ففي الوقت الحاضر يعيش طوائف عديدة من النصارى في بلاد الشام ومصر وبلاد المغرب العربي وهي شاهد على سماحة الإسلام جعلت المستشرق الإنجليزي توماس آرنولد يقول:

" إن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح " [(٢)]

ويقول أيضا: "لما كان المسيحيون يعيشون في مجتمعهم آمنين على حياتهم وممتلكاتهم ناعمين بمثل هذا التسامح الذي منحهم حرية التفكير الديني تمتعوا وخاصة في المدن بحالة من الرفاهية والرخاء في الأيام الأولى من الخلافة"

وتقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه: " العرب لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام فالمسيحيون والزرادشتية واليهود الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصب الديني وأفظعها سمح لهم جميعا دون أي عائق يمنعهم بممارسة

(١) فتوح البلدان، البلاذري، دار الهلال، بيروت، ط١، ١٤٠٣ه، ص ١٣٩ وانظر: الدعوة إلى الإسلام، توماس آرنولد، ص ٧٣ وكتاب الخراج، أبو يوسف، ص ١٣٩.
(٢) الدعوة إلى الإسلام، توماس آرنولد، ص ٧٠.

شعائر دينهم وترك المسلمون لهم بيوت عبادتهم وأديرتهم وكهنتهم وأحبارهم دون أن يمسوهم بأدنى أذى، أوليس هذا منتهى التسامح؟ أين روى التاريخ مثل تلك الأعمال ومتى؟ ومن ذا الذي لم يتنفس الصعداء بعد الاضطهاد البيزنطي الصارخ وبعد فظائع الأسبان واضطهاد اليهود

٣ - إن السادة والحكام المسلمين الجدد لم يزجوا أنفسهم في شؤون تلك الشعوب الداخلية فبطريرك بيت المقدس يكتب في القرن التاسع لأخيه بطريرك القسطنطينية عن العرب: إنهم يمتازون بالعدل ولا يظلموننا البتة وهم لا يستخدمون معنا أي عنف"(١)

٤ - ويقول غوستاف لوبون: فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين راحمين متسامحين مثل العرب ولا دينا سمحا مثل دينهم(٢) ويتحدث عن صور من معاملة المسلمين لغير المسلمين فيقول: وكان عرب أسبانيا خلا تسامحهم العظيم يتصفون بالفروسية المثالية فيرحمون الضعفاء ويرفقون بالمغلوبين ويقفون عند شروطهم وما إلى ذلك من الخلال التي اقتبستها الأمم النصرانية بأوربا منهم مؤخرا(٣)

٥ - ويقول هنري دي شامبون مدير مجلة "ريفي بارلمنتير "الفرنسية حيث قال: لولا انتصار جيش شارل مارتل الهمجي على العرب المسلمين في فرنسا لما وقعت بلادنا في ظلمات القرون الوسطى ولما أصيبت بفظائعها ولا كابدت المذابح الأهلية التي دفع إليها التعصب الديني المذهبي، لولا ذلك الانتصار الوحشي على المسلمين في بواتييه لظلت أسبانيا تنعم بسماحة الإسلام ولنجت من وصمة محاكم التفتيش ولما تأخر سير المدنية ثمانية قرون ومهما اختلفت المشاعر والآراء حول انتصارنا ذاك فنحن مدينون للمسلمين بكل محامد حضارتنا في العلم والفن والصناعة مدعوون لأن نعترف بأنهم كانوا مثال الكمال البشري في

(١) شمس العرب تسطع على الغرب، زيغريد هونكه، دار صادر، بيروت ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، ط ١٠، ١٤٢٣هـ ص ٣٦٤.

(٢) انظر: حضارة العرب، غوستاف لوبون، ص ٧٢٠.

(٣) حضارة العرب، غوستاف لوبون، ص ٣٤٤، وانظر: السلوك،أثره في الدعوة إلى الله، فضل إلهي، إدارة ترجمان الإسلام، باكستان، ط ١، ١٤١٩هـ ص ١٦٤.

الوقت الذي كنا فيه مثال الهمجية[١]

٦ - ويقول المستشرق دوزي: "إن تسامح ومعاملة المسلمين الطيبة لأهل الذمة أدى إلى إقبالهم على الإسلام وأنهم رأوا فيه اليسر والبساطة مما لم يألفوه في دياناتهم السابقة"[٢]

٧ - ويقول المستشرق بارتولد: " إن النصارى كانوا أحسن حالاً تحت حكم المسلمين إذ أن المسلمين اتبعوا في معاملاتهم الدينية والاقتصادية لأهل الذمة مبدأ الرعاية والتساهل "[٣]

٨ - ويقول المستشرق ديورانت: " لقد كان أهل الذمة المسيحيون والزرادشتيون واليهود والصابئون يستمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام "[٤]

٩ - ويقول أحد الكتاب الأمريكيين المعاصرين وهو: آندرو باترسون: " إن العنف باسم الإسلام ليس من الإسلام في شيء بل إنه نقيض لهذا الدين الذي يعني السلام لا العنف "[٥]

١٠ -ويقول بول فندلي وهو عضو سابق في الكونجرس الأمريكي: على المسلمين الإعلان جهرا عن هويتهم الإسلامية والبحث عن وسائل تمكنهم من عرض حقيقة دينهم على غير المسلمين ولا يجدر بهم انتظار حدوث أزمة كي يعلموا الآخرين بحقيقة دينهم لا بد للمسلمين أن يجاهروا بإسلامهم مجاهرة يكون سلوكهم الحسن معها وإنجازاتهم المجدية سبيلا للتعرف على الإسلام [٦]

(١) نقلا عن: صور من حياة التابعين، عبد الرحمن الباشا، دار الأدب الإسلامي، القاهرة، ط ١٥، ١٤١٨هـ ص ٤٢٠.

(٢) انظر: تاريخ أهل الذمة في العراق، توفيق سلطان، دار العلوم، الرياض، ط١، ١٤٠٣ هـ ص ٧٠ نقلا عن: نظرات في تاريخ الإسلام، دوزي، ص ٤١١.

(٣) انظر: تاريخ أهل الذمة في العراق، توفيق سلطان، ص ١٢٤، نقلا عن الحضارة الإسلامية، بارتولد، ق. ص ١٩.

(٤) قصة الحضارة، ول ديورانت، دار الجيل، بيروت، د ت، ج ١٣ ص ١٣٠.

(٥) لا سكوت بعد اليوم، بول فندلي، شركة المطبوعات، بيروت، ط ٢، ٢٠٠١م ص ٩١.

(٦) لاسكوت بعد اليوم، بول فندلي، ص ٣٤٤. بتصرف.

١١ -وكانت سماحة الإسلام سببا في إسلام الشاعر الأمريكي رونالد ركويل فقال بعد أن أشهر إسلامه: لقد راعني حقا تلك السماحة التي يعامل بها الإسلام مخالفيه سماحة في السلم وسماحة في الحرب والجانب الإنساني في الإسلام واضح في كل وصاياه(١)

إن عظمة هذا الدين لا تخفى إلا على من جهل حقيقة الإسلام أو عميت بصيرته عنه أو كان به لوثة من هوى أو حقد مقيت، وإلا فإن سماحة الإسلام في المعاملة وتيسيره في كل أموره، ظاهر بأدنى تأمل لمن طلب الحق وسعى إلى بلوغه والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون

* * * * *

المطلب الرابع:

مشاركة أهل الكتاب في المعاملات والأحوال الشخصية

جعل الإسلام في شريعته الغراء حقوقاً واجبة للمستأمنين يجب الوفاء بها وأداؤها تجاههم، وأرشد المسلمين إلى كيفية التعامل معهم، كما أوجب عليهم حقوقاً تجاه المسلمين الذين أمنوهم في ديارهم فمن تلك الحقوق الواجبة على المسلمين تجاههم:

١- العدل معهم وعدم التعدي عليهم في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، بل ولا يجوز ترويعهم وإخافتهم، ويعاملون بالعدل والقسط:

قال تعالى:**{يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}**(٢)

قال البيضاويُّ: " لا يحملنكم شدة بغضكم للمشركين على ترك العدل فيهم، فتعتدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل، كقذف وقتل نساء وصبية ونقض عهد تشفيًا مما في قلوبكم:**{اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى}** أي: العدل أقرب للتقوى، صرَّح لهم بالأمر بالعدل، وبيَّن أنَّه بمكانٍ من التقوى بعدما نَهاهم عن الجور، وبيَّن أنَّه مقتضى الهوى، وإذا كان

(١) انظر: معاملة غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، إدوار غالي الدهبي، مكتبة غريب، مصر، ط ١، ١٩٩٣م ص ٤٩.

(٢) المائدة: ٨.

هذا العدل مع الكفار فما ظنك بالعدل مع المؤمنين "[1]

وقال ابن كثير: " ومن هذا قول عبد الله بن رواحة - رضي الله عنه - لما بعثه النبيّ ﷺ يخرص على أهل خيبر ثمارهم وزرعهم، فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم، فقال: والله لقد جئتكم من عند أحبِّ الخلق إليَّ، ولأنتم أبغض إليَّ من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حبِّي إيّاه وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض»[2]

وعن صفوان بن سليم عن عدة من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم عن رسول الله ﷺ قال: **«ألا من ظلم معاهدًا أو انتقصه أو كلَّفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس؛ فأنا حجيجه يوم القيامة»**[3] وعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ : **«من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً»**[4]

وصور تطبيق هذه التعاليم والأحكام في تاريخ المسلمين كثيرة ومتنوعة، فقد كان عمر - رضي الله عنه - يسأل الوافدين عليه من الأقاليم عن حال أهل الذمة والمعاهدين، خشية أن يكون أحد من المسلمين قد أفضى إليهم بأذى، فيقولون له: " ما نعلم إلا وفاء " أي: وفاء بمقتضى العقد والعهد الذي بينهم وبين المسلمين[5] ودخل ذمِّيٌّ من أهل حمص أبيض الرأس واللحية على عمر بن عبد العزيز، فقال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله قال عمر: ما ذاك؟ قال: العبّاس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي وكان عددٌ من رؤوس النّاس، وفيهم العباس بمجلس عمر، فسأله: يا عبّاس ما تقول؟ قال: نعم، أقطعنيها أبي أمير المؤمنين، وكتب لي بها سجلاً فقال عمر: ما تقول يا ذمّيّ؟ قال: يا أمير المؤمنين، أسألك كتاب الله تعالى فقال عمر: نعم، كتاب الله أحقّ أن يتبع من كتاب الوليد، قم فاردد عليه ضيعته يا عبّاس[6]

قال ابن القيم رحمه الله: " أحكام المستأمن والحربي مختلفة، لأن المستأمن يحرم

(١) تفسير البيضاوي ٣ / ٢٢٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم ١ / ٥٦٥، والحديث رواه أحمد في مسنده ٢.
(٣) رواه البيهقي في سننه ٥ / ٢٠٥.
(٤) رواه البخاري - كتاب الجزية والموادعة - باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم ٦ / ٢٦٩.
(٥) تاريخ الأمم والملوك ٤ / ٢١٨.
(٦) صفة الصفوة ٢ / ١١٥.

قتله وتضمن نفسه ويقطع بسرقة ماله، والحربي بخلافه "[١] وقال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله: " لا يجوز قتل الكافر المستأمن الذي أدخلته الدولة آمناً، ولا قتل العُصاة ولا التعدي عليهم، بل يحالون للحكم الشرعي، هذه مسائل يحكمها الحكم الشرعي " [٢]

٢- البراءة منهم وعدم موالاتِهم:

البراء: هو البعد والخلاص والعداوة بعد الإعذار والإنذار، وهي ضد الولاء،قال ابن تيمية: " الولاية: ضد العداوة، وأصل الولاية: المحبّة والقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد "[٣]

قال تعالى:**{وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}**[٤]

قال ابن كثير: " وإعلام من الله ورسوله وتقدم إنذار إلى الناس يوم الحج الأكبر - وهو يوم النحر الذي هو أفضل أيام المناسك وأظهرها وأكبرها جميعًا:**{أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ}** أي: بريء منهم أيضًا "[٥]

فالواجب على المسلمين أن يتبرؤوا ممّن برئ الله ورسوله منه، قال تعالى:**{لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ}**[٦]

وقد مدح الله نبيَّه إبراهيم عليه السلام في براءته من أهل الكفر والشرك، وأمر بالاقتداء به، فقال:**{قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}**[٧]

قال الطبريُّ: " قد كانت لكم أسوة حسنة في فعل إبراهيم والذين معه في هذه الأمور من مباينة الكفار ومعاداتِهم وترك موالاتِهم، إلاّ في قول إبراهيم:**{لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ}**، فإنّه لا أسوة

(١) أحكام أهل الذمة ٢ / ٧٣٧.
(٢) مراجعات في فقه الواقع السياسي والفكري ٢٩.
(٣) مجموع الفتاوى ١١ / ١٦٠.
(٤) سورة التوبة، من الآية ٣.
(٥) تفسير القرآن العظيم ٢ / ٣٣٢.
(٦) المجادلة: ٢٢.
(٧) الممتحنة: ٤.

لكم فيه في ذلك؛ لأنّ ذلك كان من إبراهيم عن موعدةٍ وعدها إيّاه، قبل أن يتبيَّن أنّه عدوٌ لله، فلمّا تبيّن أنّه عدو لله تبرأ منه، فتبرؤوا من أعداء الله من المشركين به، ولا تتخذوا منهم أولياء حتى يؤمنوا بالله وحده، ويتبرؤوا من عبادة ما سواه، وأظهروا العداوة والبغضاء"(١)

وسئل سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز بما نصه: يسكن معي شخص مسيحي، وهو يقول لي: يا أخي، ونحن إخوة، ويأكل معنا ويشرب فهل يجوز هذا العمل أم لا؟

فأجاب رحمه الله: " الكافر ليس أخًا للمسلم أي: في الدين، والله يقول:**{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}**(٢)، ويقول ﷺ : **«المسلم أخو المسلم»**، فليس الكافر - يهوديًا أو نصرانيًا أو وثنيًا أو مجوسيًا أو شيوعيًا أو غيرهم - ليس أخًا للمسلم، ولا يجوز اتخاذه صاحبًا وصديقًا، لكن إذا أكل معكم بعض الأحيان من غير أن تتخذوه صاحبًا وصديقًا، وإنّما يصادف أن يأكل معكم، أو في وليمة عامة فلا بأس أمّا اتخاذه صاحبًا وصديقًا وجليسًا وأكيلاً فلا يجوز، لأنّ الله قطع بيننا وبينهم المحبة والموالاة، فقال الله - سبحانه وتعالى - في كتابه العظيم:**{قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ}**(٣)، وقال سبحانه:**{لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ}** يعني يحبون:**{وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ}**(٤)

فالواجب على المسلم البراءة من أهل الشرك وبغضهم في الله، ولكن لا يؤذيهم ولا يضرهم ولا يتعدى عليهم بغير حق، لكن لا يتخذهم أصحابًا ولا أخدانًا، ومتى صادف أن أكل معهم في وليمة عامة أو طعام عارض من غير صحبة ولا ولاية ولا مودة فلا بأس "

٣- النهي عن مشابَهتهم والأمر بمخالفتهم:

نَهى الشرع الحنيف عن مشابَهة الكفار؛ لأنّه يخلق في النفوس ميلاً إليهم، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : **«من تشبه بقوم فهو منهم»** (٥)

(١) جامع البيان ٢٢ / ٥٦٦ - ٥٦٧.
(٢) الحجرات: ١٠.
(٣) الممتحنة: ٤.
(٤) المجادلة: ٢٢.
(٥) رواه أبو داود في سننه - كتاب اللباس - باب في لباس الشهرة ٤ / ٤٤، وصححه الألباني في صحيح

قال ابن تيمية: " المشابَهة والمشاكلة في الأمور الظاهرة توجب مشابَهة ومشاكلة في الأمور الباطنة على وجه المسارقة والتدريج الخفي، فالمشابَهة في الظاهر تورث نوع مودة ومحبة وموالاة في الباطن، كما أنّ المحبة في الباطن تورث المشابَهة في الظاهر، وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة، حتى إنّ الرجلين إذا كانا من بلد واحد ثم اجتمعا في دار غربة كان بينهما من المودة والموالاة والائتلاف أمر عظيم، وإن كانا في مصرهما لم يكونا متعارفين أو كانا متهاجرين، وذلك لأنّ الاشتراك في البلد نوع وصف اختصا به عن بلد الغربة، بل لو اجتمع رجلان في سفر أو بلد غريب وكانت بينهما مشابَهة في العمامة أو الثياب أو الشعر أو المركوب ونحو ذلك لكان بينهما من الائتلاف أكثر ممّا بين غيرهما، وكذلك تجد أرباب الصناعات الدنيوية يألف بعضهم بعضًا ما لا يألفون غيرهم، حتى إنّ ذلك يكون مع المعاداة والمحاربة "[١]

٤- الإحسان إلى المحتاج منهم بالصدقة والصلة:

قال الله تعالى:**{لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ}** [٢] وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت: قدمت عليَّ أمي، وهي مشركة في عهد قريشٍ إذ عاهدوا رسول الله ﷺ، فاستفتت رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إنّ أمي قدمت عليَّ وهي راغبة، أفأصلها؟ قال: **«نعم، صليها»** [٣] وأنزل الله تعالى فيها:**{لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ}**[٤]

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أنّ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - رأى حلة سيراء عند باب المسجد، فقال: يا رسول الله، لو اشتريت هذه فلبستها للناس يوم الجمعة، وللوفد إذا قدموا عليك فقال رسول الله ﷺ : **«إنّما يلبس هذه مَن لا خلاق له في الآخرة»**، ثم جاءت رسول الله ﷺ منها حللٌ، فأعطى عمر منها حلة فقال عمر: يا رسول الله كسوتنيها، وقد قلتَ في حلة عطارد ما قلت؟ فقال رسول الله ﷺ: **«إنّي لم أكسكها لتلبسها»** فكساها عمر أخًا له مشركًا بمكة[٥]

الجامع ٢ / ١٠٥٩.

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ١ / ٤٨٨، ٤٨٩.

(٢) الممتحنة: ٨.

(٣) رواه البخاري في صحيحه - كتاب الأدب - باب صلة المرأة أمها ولها زوج ١٠ / ٤١٣ برقم ٥٩٧٩.

(٤) ينظر: الدر المنثور ٨ / ١٣٠، ١٣١، حيث عزاه لابن المنذر وغيره. والأية سورة الممتحنة: ٨.

(٥) رواه البخاري في صحيحه - كتاب الجمعة - باب يلبس أحسن ما يجد ٢ / ٣٧٣، ومسلم في صحيحه -

قال النوويّ: " وفي هذا دليل لجواز صلة الأقارب الكفار، والإحسان إليهم، وجواز الهدية إلى الكفار"[١]، والمشركون بمكة كانوا أهل حربٍ

ومن الإحسان: الإحسان إلى الحربي الأسير، قال تعالى:**{وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا}**[٢]، قال قتادة: " لقد أمر الله بالأسارى أن يحسن إليهم، وإنهم يومئذ لمشركون "[٣]، وقال الحسن: " كان الأسارى مشركين يوم نزلت هذه الآية "[٤]، وقال الطبريّ: " هو الحربي من أهل دار الحرب، يؤخذ قهرًا بالغلبة، أو من أهل القبلة يؤخذ فيحبس بحقّ "[٥]

٥- الواجب على المستأمنين في بلاد المسلمين:

أما الحقوق الواجبة عليهم تجاه المسلمين الذين أمنوهم في ديارهم فأوجزها فيما يأتي:

* مراعاة شعور المسلمين واحترام شعائرهم، وأن يراعوا هيبة الدولة الإسلامية التي يستظلون في حمايتها ورعايتها، فلا يجوز لهم سب الإسلام ورسوله وكتابه، ولا أن يروجوا عقائدهم وأفكارهم أو أن ينشروا الفساد بين المسلمين، ولا يجوز لهم أن يشهروا شرب الخمر وأكل لحم الخنزير وغيرهما من المحرمات في دين الإسلام، فضلاً عن بيعها والمتاجرة بها، لما في ذلك من إفساد المجتمع الإسلامي

* كما أن عليهم أن لا يظهروا الأكل والشرب في نهار رمضان ونحو ذلك، مراعاة لمشاعر المسلمين

* كما أن عليهم الالتزام بأنظمة الدولة المسلمة وقوانينها التي تنظمها لأفراد شعبها وتطبقها عليهم، فلا يجوز لهم مخالفتها أو تجاوزها، فإن خالفوا ردعوا وعوقبوا بما يراه ولي أمر المسلمين أو من ينيبه[٦]

* * * * *

كتاب اللباس - باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة إلخ ١٤ / ٣٧، ٣٨.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٤ / ٣٩.

(٢) الإنسان: ٨، ٩.

(٣) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٨ / ٣٧١، وعزاه لعبد بن حميد.

(٤) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٨ / ٣٧١، وعزاه لابن مردويه وغيره.

(٥) جامع البيان ٢٣ / ٥٤٣، ٥٤٤.

(٦) ينظر: الشرح الكبير ١٠ / ٥٦٧، حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٤٩.

المطلب الخامس:

صوراً من الواقع في هذا العصر بين المسلمين وأهل الكتاب

إباحته ذبائح أهل الكتاب ونكاح نسائهم:

كان رسول الله ﷺ امتثالاً لقول الله سبحانه وتعالى:**{الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ المُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ}**[1] قد أباح لأمته ذبائح أهل الكتاب دون باقي ملل الكفر، وهذا يعني إذا كان بين المسلمين وأهل الكتاب مبادلة في التجارة، يحصل الاختلاط بينهم، ولا شك أن هذا مدعاة لدخولهم الإسلام وعن عبدالله بن مغفل رضي الله عنه قال: أصبت جراباً من شحم يوم خيبر، قال: فالتزمت فقلت: لا أعطي أحداً اليوم من هذا شيئاً، فقال: فإذا رسول الله ﷺ مبتسم [2]

قال الإمام النووي في شرح هذا الحديث، وفي هذا إباحة أكل طعام الغنيمة في دار الحرب، وقال القاضي: (و أجمع علماء الإسلام على جواز أكل طعام الحربيين ما دام المسلمون في دار الحرب فيأكلون منه قدر حاجتهم، ويجوز بإذن الإمام وبغير إذنه ولم يشترط أحد من العلماء استئذانه إلا الزهري، وجمهورهم على أنه لا يجوز أن يخرج معه شيئاً إلى عمارة دار الإسلام فإن أخرجه لزمه رده إلى المغنم)[3]

و كذلك أباح الإسلام مصاهرة أهل الكتاب والتزوج من نسائهم مع ما في الزواج من سكن ومودة ورحمة وهذا يجوز مع الذين لم يقاتلوا المسلمين ولم يخرجوهم من ديارهم ولم يظاهروا على إخراجهم كالنساء والضعفة، أما المعتدين فيجب معاداتهم وعدم موالاتهم[4]،قال تعالى:**{لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوَهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ**

(١) المائدة: ٥.
(٢) انظر فتح البارئ الجزء ١٠ - ص ٣٦١ - الحافظ بن حجر - مكتبة الألفية للسنة النبوية - ١٩٩٩ - الإصدار ١/٥.
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم - الجزء ١٢ ص ١٠٢ (المكتبة الألفية).
(٤) ابن كثير - الجزء الرابع - ص ٣٥٠.

وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}(١)

قبول الهدية من أهل الكتاب:

لا شك أن قبول الهدية فيه نوع من التقارب، وكلما زاد التقارب بين قوم سهلت دعوتهم وقد كان النبي ﷺ يقبل الهدية من أهل الكتاب ولا يقبلها من غيرهم من المشركين، وهذه خصوصية لهم ربما تدفعهم إلى الدخول في الإسلام

و عن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: أهديت للنبي ﷺ ناقة فقال: أسلمت؟ فقلت: لا، فقال النبي ﷺ : **«إني نهيت عن زبد المشركين»** (٢)

و عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن أكيدر دومة وهو من أهل الكتاب أهدى النبي ﷺ ثوب حرير فأعطاه علياً فقال: **«شققه خمراً بين الفواطم»** (٣)

وصيته ﷺ على أهل الذمة:

كان النبي ﷺ قد أوصى على أهل الذمة والكتاب، وهدد بالوعيد الشديد على من نقض عهدهم، حتى أنه توعد أصحابه بأن من قتل معاهدا في غير وقته الذي يجوز قتله فيه حرّم الله عليه الجنة، وهذا من حرصه ﷺ على دعوة أهل الكتاب

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: **«من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وأن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً»** (٤)

و كان ﷺ لا يرضى أن يمس أهل الكتاب ظلم ولو كان من أصحابه، سواء كان هذا الظلم اعتداءً على أنفسهم أو أموالهم

عن العرباض بن سارية السلمي رضي الله عنه قال: نزلنا مع رسول الله ﷺ قلعة خيبر ومعه من معه من المسلمين، وكان صاحب خيبر رجلاً مارداً متكبراً، فأقبل إلى النبي ﷺ وقال: يا محمد ألكم أن تذبحوا حمرنا وتأكلوا ثمرنا وتضربوا نساءنا؟ فغضب

(١) الممتحنة: ٨، ٩.

(٢) أخرجه الترمذي - الجزء الرابع - ص ١٤٠ - باب كراهية هدايا المشركين (الموسوعة الذهبية) حديث رقم ١٥٧٧.

(٣) أخرجه مسلم - الجزء الثالث - ص ١٦٤٥ - باب تحريم استعمال إناء الذهب والفضة على الرجال والنساء - حديث رقم ٢٥٧١١٥٧٧.

(٤) أخرجه البخاري - الجزء الثالث ص ١١٥٥ - باب إثم من قتل معاهداً من غير جرم - حديث رقم ٢٥٩٥.

النبي ﷺ وقال: **«يا ابن عوف اركب فرسك ثم ناد إن الجنة لا تحل إلا لمؤمن، وأن اجتمعوا إلى الصلاة»** فاجتمعوا، ثم صلى بهم ثم قام فقال: **«أيحب أحدكم متكئاً على أريكته قد يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئاً إلا ما في القرآن، ألا أني والله وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء وإنها لمثل القرآن أو أكثر، وأن الله تعالى لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن، ولا ضرب نسائهم، ولا أكل ثمارهم إذا أعطوا الذي عليهم»**

كان ﷺ يدعو الناس بمختلف اتجاهاتهم ويبلغهم رسالة ربه، ومن ضمنهم أهل الكتاب وقد كان ﷺ يدعو أهل الكتاب دعوة خاصة، وكان تارة يدعوهم بوجه عام اليهود والنصارى، وتارة يخص بدعوته اليهود، وتارة يخص بدعوته النصارى

قد امتثل ﷺ أمر ربه حيث أمره بذلك في قوله تعالى:**{قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}**[1]

هذا خطاب موجه إلى أهل الكتاب يأمر فيه الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم محمد ﷺ أن يقول: **«يا معشر اليهود والنصارى هلموا إلى كلمة عادلة مستقيمة فيها إنصاف بعضنا من بعض وأن نفرد الله وحده بالعبادة ولا نجعل له شريكاً، أي لا يعبد بعضنا بعضاً كما عبد آباؤكم من اليهود والنصارى عزيراً وعيسى، وأطاعوا الأحبار والرهبان فيما أحلوا لهم وحرموا»** [2] هذا خطاب فيه خصوصية لأهل الكتاب لأنهم أهل علم ودراية بدين سابق

و كان النبي ﷺ يدعو أهل الكتاب كافة، وكان التأكيد أقوى في مخاطبته الملوك والزعماء، لأن من كان ذا مسؤولية ورعاية عظيمتين كان التبعة عليه أعظم، من هذا المنطلق كتب ﷺ إلى هرقل عظيم الروم خطاباً لطيفاً فيه تبشير وتنذير قال فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين،

(١) آل عمران: ٦٤.

(٢) صفوة التفاسير - المجلد الأول - دار القرآن الكريم - بيروت - ط ٤ - ص٢٠٨ - محمد علي الصابوني. ١٥٤.

فإن أبيت فإن عليك إثم الأريسيين[١]

قال الإمام النووي في شرح هذا الحديث: (الأريسيين هم الأكارون أي الفلاحون والزراعون ومعناها أن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك، وبهؤلاء على جميع الرعايا لأنهم الأغلب ولأنهم الأسرع انقياداً فإذا أسلم أسلموا وإذا امتنع امتنعوا)[٢]

و المعنى أنه إذا آمن له أجران أجر لإيمانه بالرسول السابق، وأجر لإيمانه بمحمد، وإذا لم يؤمن أن عليه إثم الضعفاء والأتباع في مملكته إذا لم يسلموا تقليداً له، لأن الأصاغر أتباع الأكابر

وفي دعوته لليهود والنصارى قال: (و الذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار)[٣]

وفي هذا الحديث خص النبي ﷺ اليهود والنصارى رغم أن لهم كتباً سماوية أمروا باتباع ما فيها، وفيه كذلك دليل على نسخ الملل كلها برسالة نبيِّنا محمد ﷺ

وفي حديث آخر قال رسول الله ﷺ : **«ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران»**[٤]

وفي هذا الحديث جعل الرسول ﷺ أسلوب الترغيب لأهل الكتاب منهجاً في دعوته حيث أخبرهم أن الذي آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ له أجران، وكذلك يرى الكتابي أنه له مزية على المشرك حيث كان للمشرك أجر واحد، فيعلم بذلك أن الإسلام يقدر الأديان السابقة ويرفع من شأنها

* * * * *

(١) أخرجه البخاري - جزء ١ ص ٩ - كتاب بدء الوحي - باب كيف بدأ الوحي إلى رسول الله ﷺ - حديث رقم (٧).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم - الجزء ١٢ - ص١٠٩ (المكتبة الألفية).
(٣) أخرجه مسلم - الجزء الأول - ص ١٣٤ - باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس (الموسوعة الذهبية) حديث رقم ١٥٣٥.
(٤) أخرجه البخاري - الجزء الأول - ص٤٨ - باب تعليم الرجل أمته وأهله - حديث رقم ٩٧.